شخصيات عباسية :

جحظة المغنى الشاعر

٢٢٤ – ٣٢٤ م

للشيخ محمـــــد رجب البيومى

(تتمة ما نشر فى العدد الماضى)

لم يكلف جحظة بالطعام وحده بل كان كلفه بالشراب موضع الغرابة حتى تلاشت بجانبه الشهوة إلى الأكل فى أواخر شبابه فهو يقول :

قد قلل الإدمان أكلى فما   أطعم زاداً قيس إبهـــام
فالحمد لله وشـــكراً له   قد صرت من بائد أقوام
قوماً ترى أولادهم بينـــهم   للجوع فى حـــلة أيتام

وقد حدا به الإدمان الفاحش إلى التردد إلى الديارات المنتشرة فى بغداد وضواحيها المتقابلة ، فأخذ الراية من أبى نواس ، ووكل إلى نفسه الدعاية البارعة إلى ما فى الأديرة من متع وملاذ ، وأصبح شعره فى هذا الموضوع وسيلة كبيرة من وسائل التعريف بما هناك. وأنت ترى الشابشتى وياقوت والعمرى وجميع من كتبوا فى هذه الناحية يروحون عن قرائهم بقصائد جحظة ، والواقع أن الديارات كانت فتنة كبيرة من فتن الشيطان ، فهى تقام بين الحدائق والبساتين وبها من العذارى الراهبات مايستخف الوقور؛ والغريب أن خلفاء المسلمين كانوا يؤمونها مع الشعراء والماجنين ، وأى إنسان يرى نفسه فى حديقة مورقة ، وعن يمينه عذراء ناهدة ، وعن يساره خمر معتقة ، وأمامه لدن ياغم بغنيه ثم لايقدم على انتهاك الحرم فى هذا الجو الإباحى الخلاب ، وإليك ما وصف به جحظة دير الزندورد لتقف على ما بهذه الأماكن من مغريات جاذبات :

سقيا ورعيا لدير الزندورد وما   يحوى ويجمع من راح وريحان
دير تدور به الأقداح مترعـــة   من كف ساق مريض الطرف وسنان

٢٧ ، ٣٠

فالعود يتبعـــه ناى يوافقه   والشدو يحكمه غصن من البان
والقوم فوضى ترى هذا يقبل ذا   وذاك إنسان سوء فوق إنسان
هـذا ودجلة للرائين معترض   والطير يدعو هديلا بين أغصان

ولقد اختص أبو الحسن دير المذارى بوده ومحبته ؛ فقد رأى فيه من المتعة واللذاذة ما ليس فى غيره . فكان فيه مغانه ومغداه ؟ وإليه مراحه ومأواه ، وطالما جمعه بكثير من الشعراء والأدباء ، فيتذاكرون ويتناشدون . وقد يغلبه السكر فيخرج على حال كريهة فى النظر والهيئة : فثيابه مبتلة ، ورائحة الخمر تتقدمه ، ثم هو يدافع عن نفسه فى هذا الوضع البغيض ، فيقول :

قالوا قميصـــك مغمور بآثار   من المدامة والريحان والقار
فقلت من كان مأواه ومسكنه   دير العذارى لدى حانوت خمار
لم ينكر الناس فيه أن حلته   خضراء كالروض أو حمراء كالنار

وعشاق الأدب يطربون لما تغنى به جحظة فى دير العذارى ، فقد رسم لهم منظراً من مناظره الضاحكة فسمعوا صلصلة الناقوس ورأوا القسيس يترنح من السكر ، ثم ينهض إلى القيام فيرتعش من الإدمان ، ويغنى فتتقاطر دموعه على خده ، وأخيراً يخلص إلى الحنين لهذا العهد فيقول :

ألا هل إلى دير العذارى ونظرة   إلى الخير من قبل الممات سبيل
وقد نطق الناقوس بعد سكوته   وشمعل قسيس ولاح فتيل
يريد انتصاباً للقيام بزعمه   ويرعشه الإدمان فهو يميل
يغنى وأسباب الصواب تمده   وليس له فيما يقول عديل
(ألا هل إلى شم الخزامى ونظرة   إلى قرقرى قبل الممات سبيل)
وثنى يغنى وهو يلمس كأسه   وأدمعه فى وجنتيه تسيل
سيعرض عن ذكرى وتنسى مودتى   ويحدث بعدى للخليل خليـــل
سقى الله عهداً لم تكن فيه علقة   لهم ، ولم ينكر على عذول

وأنا أعجب كيف عرّج أبو الحسن على قسيس الدير فلم يتنقصه مع أنه كان يقطع الجلسات الطويلة متحدثاً فيما يعرفه من علائق القُسس بالراهبات ، وكثيراً ما كان يغنى بقول القائل :

إن بالحيرة قساً قد مجن   فتن النساك فيه وافتتن

جر الإنجيل من حب الصبا ورأى الدنيا متـاعا فركن

وأنا أعتقد أن رجال الدين على جانب كبير من التقوى صلاح وقد يندر فيهم من تزل قدمه فى وهدة الخطأ ، فيؤخذ رماء على كثرتهم بآثام المذنبين ، ومن ذلك ما زعمه الجاحظ أن فتيانا من تغلب أرادوا قطع الطريق على ركب يمر بهم ثم نهم العين بأن السـلطان قد عرفهم وجدّ فى طلبهم ، قال دهم فاحتجبنا فى الدير فلما أمنا قال بعضنا لبعض : ما عتينا أن د القس بوثاق ثم يخلو كل واحد منا إلى راهبة عذراء ، فإذا ع الفجر تفرقنا فى البلاد ، وكنا جماعة بعدد الراهبـــات جدناهن كاهن ثيبات قد فرغ منهن القس ، فهذه قصة قد كون صادقة وقد تكون كاذبة ، ولـكن الشعراء قد نددوا بها شح تنديد فكان مما قيل :

ســـق من راهب يدعى   بأن النســـاء عليه حرام
ما مشى غضّ من طرفه   وبالدير فى الليل منـه عُرام
ر العـذارى فضوح لهن   وعند اللصوص حديث تمام

ولقد حظيت الراهبات بالروائع البديعة من شعر جحظة ، ظنك بشاعر قضى عمره الطويل فى تطلبهن بأديارهن فهو بفتأ يرحل إلى كل مكان عراق يحللن به ، ولولا فقره المدقع نتقل إلى الشام ومصر فى تصيدهن كما فعل أستاذه أبو نواس و فى غزله يعبر عن الواقع ولا يتعداه فيقول :

مباه يتلون ســـفراً من الإنجيل باكرن سحرة قربانا
ـــات من المـرح ثيابا جعل الله تحتهـا أغصـــانا
رات حتى إذا دارت الكا س كشفن النحور والصلبانا

كما أنه كان يستعين بأصدقائه الموسرين على نفقات السـفر جور الارتحال ، ومن هؤلاء إبراهيم بن المدبر أحد ولاة الدولة تابها ومراتها ، ولعل السر فى صـــداقتهما الوطيدة هو ماعهما على حب عريب المغنية فقد جُنّ إبراهيم بهـا جنونا ما ، وكان أبو الحسن من صنائعها المقربين فقد منحته الهبات ورة لانتسابه إلى سيدها وولىّ نعمتها الأول جعفر البرمكى ، ت تجده يتحمس لشأنها ، ويبالغ فى مدحها على غير عادته ، جحظة : قال أبو العباس بن حمدون : ليس غناء عريب مما

يعتد به لـكثرته ، لأن سقطه كثير وصناعته ساذجة ، فقلت له وَمَن من مغنى الدولة العباسية سلمت صناعته كلها حتى تكون عريب مثله وأخذت أعدّ أكثر من مائة صوت لها وهو يعترف بجودتها ، فقال لى أخيراً ما خلّفت عريب امرأة مثلها فى الغناء ، فقلت له ، ولا كثيراً مثلها فى الرجال .

فانظر إلى دفاع جحظة عن عريب وأقرنه بما نعرفه عنه من تحامله على كل مغن وتنقصه لمـا يسمع من الألحان ، جيداً كان أو رديئاً ، قال أبو الفرج : « ومذهبه — أى جحظة — فى كتاب الطنبوريين أن يثلب جميع من ذكره من أهل صناعته بما يقدر عليه من الثلب ، وبما يعلم وما لا يعلم من الرأى » وليس الكتاب بأيدينا لنستدل على ما ذكره صاحب الأغانى ، ولـكنه ثقة فيما يقول :

وكنت أتمنى أن يبق الدهر على شىء من كتب أبى الحسن حتى نعرف طريقته فى البحث والتبويب ، فقد ألف كتابين فى الطعام ، وآخرين فى الغناء ، وكتاباً فى التنجيم ، وديوانا جمع أشعاره الكثيرة ولـكن حظه النـكد قد أضاع ثروته الأدبية ونحن ننظر إلى ما بقى من كلماته النثرية فنشهد له بالجودة كأن يقول فى حمل مشوى : الشهيد بن الشهيد ، ذهبى الدثار ، فضىّ الشـعار ، وكان يواسى رجلا سرق ثوبه فيقول : هون عليك . فليس قميص يوسف ، ولا برد النبى ، ولا رداء الشباب ، أضف إلى ذلك نكاته الفكهة كقوله عن دعوة حضرها : كل ما فيها بارد إلا الماء وأمثال ذلك كثير .

أما منزلته فى الغناء فقد قال صاحب زهر الآداب : « إنه ممتد النفس حسن المسموع ، طيب الصوت ، إلا أنه كان ثقيل اليد فى الضرب ! ويذكر جحظة عن نفسه أنه وفد على المقتدر مع جماعة من المغنين فأعطاه مائتى دينار ، وأعطى كنيزة ثلاثمائة ، وأعطى غيرهما مائة ، ومن هنا ندرك أنه كان فوق الوسط فى صنعته ، لا سيما وقد اعترف ابن الرومى به — على عدائه له — فقال يهجوه :

نبئت جحظة يستعير جحوظه   من فيل شطرنج ومن سرطان
وارحمتا لمنـــادميه تحملوا   ألم العيـــون للذة الآذان

ولو كان ردىء الصنعة ما كان لصوته لذة ، ولست أدرى السبب فى تحامل ابن الرومى عليه ، ولعله لما اشتركا فيه من التزاحم على الموائد ، والشره فى الأكل ؛ فقد قيل فى المثل العامى : الضيف يكره الضيف ، وصاحب المنزل يلعنهما بلا انقطاع ! !

ويهمنا أن نتحدث عن شعره فنعلن أنه لم يجر على عادة غيره من شعراء عصره فيرسل المدائح الطويلة ، مفتتحة بالغزل الصناعى بل كان يجيش صدره بالمعنى ، فيصوغه فى عدة أبيات ، وأحياناً يسهب فى نظامه ولكن فيما يتعلق بحياته الخاصة ، فهو من هذه الناحية شاعر يحترم فنه فلا يعبر عن غير ما يختلج فى حناياه ، لذلك تجد إنتاجه منصرفاً إلى مجالس اللهو وتصوير ما يمثل فى الحانات من مناظر العبث والشراب ، على أنك تلمس إبداعه حين يبتدىء فيصف المكان أولا ويتكلم عن المدامة والساقى ثانياً ثم ينتقل إلى المغنى فيسمعك رنين الأوتار ، ويريك ترنح الشاربين ، إذ يقول :

طرقنا « بزوغى » حين أينع زهرها   وفيهـا لعمر الله للعين منظر
فكم من بهار يبهر العين ضوؤه   ومن جدول بالبارد العذب يزخر
ومن مستحث للمدام كأنه   وإن كان ذمياً أمير مؤمر
شقائق تندى بالندى فكأنها   خدود عليهن المدامع تقطر
فكم ساقط سكراً يلوك لسانه   وكم قائل هجراً وما كان يهجر
وكم منشد بيتاً وفيه بقية   من العقل إلا أنه متحير
وكم من حسان جس أوتار عوده   فألهب ناراً فى الحشا تتسعر
يغنى وأسباب الصواب تمده   بصوت جليل ذكره حين يذكر
(فكان مجنى دون ما كنت أتقى   ثلاث شخوص كاعبان ومعصر)

ولعل فيما أسلفنا من شعر أبى الحسن ما يوقفك على اشراق لفظه ورقة معناه ، والحق أنه تأثر بأبى نواس فى أغراضه ، وإن تخلف عنه فى جزالته ، وعذره أنه كان يوزع جهده بين الشعر والغناء والتأليف ، هذا إلى ثقافته الواسعة فى اللغة والنحو والفلك فقد أثقلت عقله فلم يتمكن من التحليق كما تمكن الحسن بن هانىء ، على أنه كان ذا تشبيه بارع لا يتأتى للكثيرين كان يقول :

ورق الجو حتى قيل هذا   عتاب بين جحظة والزمان

أو يقول :

دليل فى جوانبه حران   فليس لطول مدته انقضاء
عدمت مشارق الإصباح فيه   كأن الصبح جود أو وفاء

وأحياناً يعمد إلى الفكاهة الماجنة ، فيصوغها فى خفة ودعابة إذ يقول :

رأيت الغانيات صددن عنى   وأعرضت القبيلة الرداح
وقلن مضت بشرتك الليالى   فقلت نعم وقد رث السلاح

وقد جرى مع البحترى فى وصف ثقيل بارد فقال الوليد أبياته الشهيرة فى هجاء ابن الجهم وقال جحظة على طريقته ونهجه :

يا لفظة النعى بموت الخليل   يا وقفة التوديع بين الحمول
يا طلعة النعش ويا منزلا   أقفر من بعد الأنيس الحلول
يا نهضة المحبوب من غضبة   يا نعمة قد آذنت بالرحيل
يا بكرة الثكلى إلى حفرة   مستودع فيها عزيز الثكول
يا شوكة فى قدم رخصة   ليس إلى إخراجها من سبيل

وهذا طراز من الشعر إن دل على شىء فإنما يدل على تمكن صاحبه من صناعته ، وإن كان لا يرضى من يتطلب التنويع فى النحى والتمدد فى الاتجاه ، لا أن يسير الشاعر على نمط واحد ، وكأنه بناء آلى يضع حجراً على حجر .

وقد عاش الشاعر قرناً كاملا قضى فيه أربه من اللذة والمتعة وإن كان الوهن قد دب إليه فى أواخر عمره فوقع فيما لا يرتضيه من المرض والهزال ، وحينذاك تقوست قناته وثقلت حركته ، وأصبح من الموت قاب قوسين فصاح يرثى نفسه :

هى الستون قد عطفت قناتى   ونفرت الغوانى من وصالى
كأنى بالنوادب قائلات   وجسمى فوق أعناق الرجال
ألا سقيا لجسمك كيف يبلى   وذكرك فى النوادب غير بالى

ثم خمدت أنفاسه ، فسكت وتر ، وجف كأس ، وخلا سامر ، ومات إنسان .

محمد رجب البيومي